صفحة ذهبية من تاريخ لبنان

البطريرك اللبناني

الياس بطرس الحويك

بقلم الخوري منصور عوّاد عوّاد

٤

موقف البطريرك من ربه

لا أغالي اذا قلت ، وقد اختبرت بنفسي ، واختبر طويلًا غيري اناس ذوو مراتبٍ خطيرةٍ لا يكذبون ولا يمارون ولا يوارِبون ولهم الفهم السامي والعلم الوافي والفضيلة الراسخة ، ان البطريرك الياس الحويك كان اقرب الناس الى اولياء الله ، ان لم اقل انه كان من اوليائه تعالى !

فقد كان كله لله في حياته الفردية والعمومية ، كان له بكليته في طفولته عهد كان لا يعرف الا حلتا وكنيستها ، كما كان له عهد صار بطريركاً وبلغ اوج مجده والتفَّ حوله لبنان قاطبة . كان لله في سرّه وفي علنه ، في ايام راحته وفي اشد ايام متاعبه . كان لله يوم قابل السلطان عبد الحميد ، عهدَ كان مظفَّر باشا يحاربه تحت لواء الماسونية في لبنان والاستانة ، كما كان لله يوم ازدان صدره بالمجيدي المرصَّع ! كان لله يوم كان الناس يموتون جوعاً في لبنان حوله ابَّان الحرب الكونية والمجاعة اللبنانية ، ويوم استدعاه جمال باشا الى عاليه لينفيه ، وساعة وقعت عينه على عين ذلك الطاغية ، كما كان له عند ما زار نمر فرنسة كليمنصو في باريس ، عهد كان معقودًا فيها مؤتمر السلم ، كما كان لله يوم عاد الى لبنان حاملًا صكَّ استقلاله ، وأُقيم له ذلك المهرجان التاريخي الخالد !

ولو استطعنا ان نرى الملائكة ونخاطبهم لسألنا عنه ملاكه الحارس الذي ما فارقه قط منذ ابصر النور في حلتا الى ان اغمض عينيه في بكركي ، ولاجابنا

الملائك بان البطريرك اللبناني الكبير من ولادته الى وفاته كان كله لله. واذا كان قد بدر منه هفوة فلم تكن عن سوء قصد ولا عن نيـة ملتوية ، بل كانت برهاناً على ان الانسان مهما بلغ من الكمال يظلّ عرضة للانخداع والغلط ليظهر بذلك كمال الله وعصمته الوحيدة !

ولا شكّ في ان سرّ توفّق الحويك في جميع اموره وسر نجـاته من جميع الملمّات التي ألمّت به والمكائد التي كيدت له ودبّرها الذين لم يخطر ببال احد انهم يكيدونها ، بل سرّ عظمته بل سر تمييزه مع سلامة حواسه الخارجية والداخلية وقواه العقلية جميعها حتى آخر ساعة من حياته ، كان في اتحاده بالله ومحبته اياه عزّ وجل . وان ذلك الاتحاد وتلك المحبة قد خلعا مسحةً من وقار الله ومن جلاله على عينيه وعلى وجهه تهيّبـه لاجلها جمال باشا ، كما كان قد تهيّبه قبلـه « سلطان البرّين وخاقان البحرين السلطان ابن السلطان السلطان عبد الحميد خان » في اعظم ايّام مجده وسؤدده واستبداده ! او ليس مسحة من الله ذلك الوقار الذي كان يجتذب اليه الطفل الصغير رقةً وحلاوةً ودعةً ويلقي المهابة والاحترام في صدر المستبد الطاغية والنمر من قوّاد الجحافل كجمال ، ومن قادة الساسة نظير كليمنصو ، ورب العرش الدموي كعبد الحميد ؟ !

ان سرّ اجتماع القلوب على محبة الحويك وعلى احترامه وعلى الثقة العمياء به وعلى اتفاق اللبنانيين قاطبةً في تقليدهم اياه الزعامة المدنية العامة للمطالبة باستقلالهم رغم ما كانوا عليه ولا يزالون من اختلاف الاديان والطوائف والمشارب والغايات لهو في محبته لله ، اذ جعلته على مثاله محباً للجميع يحبه الجميع ويهابونه ويتكلون عليه ولا يرتابون بصدقه واخلاصه !

أجل ان من كان يملك الله فهو مالـك كل شيء مهما كان فقيراً . ومن يملك كل شيء ولا يملك الله فهو افقر الناس واحوجهم الى الشفقة !

فلننظر كيف كان الحويك كله لله في حياته الفردية ثم العمومية .

موقف الحويك من ربه في حياته الفردية

في بكركي ، بين السادة الاساقفة ، شخص رافق الحويك من ساعة انتخابه بطريركاً على كرسي بطرس الانطاكي الى ساعة أودع في اللحد امانةً ليوم القيامة ! ذلك الشخص هو شاهد عيان لحياة الحويك اليومية في اثنين وثلاثين عاماً . هو المطران عبدالله خوري . فهلم نسأله كيف كان يقضي البطريرك يومه في ايام المهرجانات العظيمة ، يوم كان يستعد لمواجهة الحبر الاعظم ، او لمقابلة السلطان ، او للوقوف بين يدي عظيم من عظماء الارض ، او للبحث مع دهاقنة السياسة وكبار رجالها في الامور الخطيرة التي يتوقف عليها مستقبل طائفته وبلاده . أكان يختلف عنه يوم كانت المجاعة في لبنان تحصد ابناءه بعشرات المئات يومياً ، الى يوم كان الهدوء والسكينة يرفّان فوق بكركي وفوق الديمان ؟ !

للبطريرك الحويك تجاه ربه في كل بطريركيته يوم واحد وموقف واحد لم يتغيّر في حلٍ ولا في ترحال ، الّا عند ما كان يزعجه الداء . فكان للبطريرك في مرضه يوم آخر من ايامه امام ربه له شكله الخاص لا يختلف عنه في داء وداء !

كان ينهض من رقاده باكراً ويتحمّم بالماء البارد وينصرف الى صلواته رافعاً عقله وقلبه الى الله ، مخصّصاً نهاره كله لله ، مبتدئاً بصلاة الفرض الالهي يتلوها بعبادة وخشوع وتأنٍ : كما تلاها في اليوم الاول لكهنوته تحسبه وهو يتلو فرضه يخاطب ملكاً ماثلاً امامه بكل جلال الملك وسلطانه . ولا غرو فقد كان ايمانه بالله حيّاً عظيماً ، وكان يعلم انه في حضرة ملك الملوك ورب الارباب وسيّد السادات . فلا ينتهي من صلاته الفرضية حتى ينصرف الى الصلوات القلبية صارفاً فيها ساعة كاملة . ثم يعود الى صلواته اللفظية في كتاب صغير كان رفيق البطريرك منذ صباه في مدرسة مار يوحنا مارون في كفرحي ، وفي غزير ، ورومية ، وفي الكرسي البطريركي عهد كان كاتم اسرار وفي عهد

الإستقية ، وقد لازم البطريرك حتى آخر يوم من ايام حياته. على اوراق ذلك الكتيب السميد الحظ آثار من يدي الحويك تنبئ الناظر اليها الى قدم عهدها به ومن الكتيب تنبعث رائحة قداسة الحويك !

كان يظل البطريرك في صلوات الصباح حتى الساعة الثامنة . ثم يفتح بابه لحاشيته ويبتدئ بالقداس الالهي في معبده الخصوصي.

كل من حضر الذبيحة الالهية يتلوها البطريرك الحويك لم يرَ فرقاً بينه وبين ما نقرأه في هذا المعنى عن القديسين فيلبوس النيري وفرنسوا دي سالس او عن البابا بيوس العاشر . فآخر قداس اقامه بذاته في بكركي ، قبل ان يغادر هذه الفانية كان كقداسه الاول الذي اقامه في رومية بين مدامع التعزية والفرح والحب الالهي ! كان في القداس يحافظ على كل الحرمات الطقسية،اذا جثا تطرق ركبتاه الارض فيُسمع لها دويٌّ مؤثر ، وكان الركوع يزعجه جدًا بهذا الشكل لانه كان بديناً ، ومع ذلك فما كان يغيّر من هذه الحركة ولا يختصرها . وكان اذا لدب صدره تخاله بطرس الرسول عند صياح الديك ! واذا رفع عينيه الى السماء تحسب موسى كليم الله عندما كان باسطاً ذراعيه يصلي لاجل انتصار شعب الله في حرب عماليق[1] وكم كان يزعجه الجثو الى الارض في شيخوخته غير انه ما غيّر عادته ولا حاد عنها قيد شعرة !

وعندما كان ينظر الى الذبيحة على مذبح الرب كان الناظر اليه يظنه في علية صهيون ليلة العشاء السرّي يشاهد الرب يسوع وجهاً لوجه ! ومتى صمت كان يطول صمته هيبةً واحتراماً لابن الله المحتجب امامه تحت اعراض الخبز والخمر. الا ان من كان ولا يزال محتجباً عنا لم يكن محتجباً عن البطريرك الحويك ، لان عين ايمانه الحي كانت تشق حجاب السرّ الالهي وتلج الى مخدع اللاهوت والناسوت في سعادة الخلود فترى الرب يسوع كما يشاهده السعداء في النعيم الخالد !

هكذا كانت تقول حركات البطريرك اللبناني ولحظاته واشاراته وسكوته على المذبح !

---

١) الخروج ١٧: ١١ و١٢

وعندما كان ينتهي من الذبيحة الالهية كان يجثو امام القربان فيتلو صلوات الشكر اللفظية المألوفة في الطقس الماروني ثم يغوص في بحر المحبة الالهية شاكرًا، حامدًا، متأملًا، طالبًا، واعدًا. فيصرف ساعة لا يتحرّك بمنةً ولا يسرةً كأنه تمثال وقبل ان ينهض يتلفّت في الهيكل ليرى ما اذا كان هنالك احد حتى اذا أمن الرقباء انطرح على الارض مكبًا على وجهه يقبّل الحضيض كأنه يردّد مع المرتّل: «ما احب مساكنك يا رب القوات. تشتاق وتذوب نفسي الى ديار الرب ويرنّم قلبي وجسمي للاله الحي. العصفور وجد لـه مأوى واليمامة عشًا تضع فيه افراخها. من لي بمذابحك يا رب الجنود ملكي والهي... ان يوماً في ديارك خيرٌ لي من الف[1]»

وعندما ينهض ولا يرى احدًا يراقبه بل يخلو في المعبد وحده يطوف على جدران المعبد يقبّل صور العذراء والقديسين المطّقة عليه صورةً صورةً واقفاً امام كل صورة دقيقةً يتلو فيها بعض الصلوات اللفظية، فكان في ذلك يعيد عهد سذاجته وطفوليته عندما كان يختلف في حلتا الى الكنيسة سرًا عن والديه وهنالك يجثو ويصلي ويقبّل اولياء الله نفوسهم ويخاطبهم كأنهم احياء امامه. ولا عجب اذا كان داوم على تلك الخطّة فالشاب على طرقه وانه شاب لا يحيد عنها: فسذاجة الحويك في طفوليته في حلتا رافقته في جميع ادوار حياته الغنية بالحوادث والسنين حتى آخر نفس من انفاسه على هذه الارض كالشمس ما عابها انها منذ خُلق النير الاكبر الى اليوم لم تتغيّر بل كان في هذا كمالها.

ان موقف الحويك البطريرك الكبير من ربّه في طفوليته كان ساذجاً بسذاجة الطفولية غير ان سذاجته في سائر ايام حياته ولاسيما في عهد بطريركيته كانت سذاجة الحكمة الالهية والقداسة اذ كان قد ادرك، منذ بلغ رشده، كلام السيد المسيح القائل: «ان لم ترجعوا وتصيروا مثل (هؤلاء الصغار) فلن تدخلوا ملكوت السماوات»[2] فحافظ على طفوليته الى نهاية شيخوخته في

---

١) مزمور ٨٣

٢) متى ١٨: ٣

جميع مظاهرها الجميلة البارّة محافظةً على تعليم السيد المسيح ،فكان شيخاً في صباه بعقله وقلبه ، وكان طفلاً في شيخوخته بسذاجته وبرارته .

يخرج البطريرك اللبناني من معبده، فيتناول طعام الصباح ، فيأكل جيداً مصلياً قبل الاكل وبعده . ثم ينصرف الى اشغال البطريركية بكل هدوء وطمأنينة ناظراً الى الله في كل ما يعمله فيخاله جليسه او زائره لوقاره ورزانته كأنه لا يزال في الكنيسة ، يتحدث عن كل شيء ويروي لزائريه النكات والفكاهات التاريخية لا يعرف الهزل ، ولا تخرج من فيه كلمة تمسّ القريب او تخدش الآداب او تجرح فضيلة من الفضائل فكان انموذجاً حياً للكمال المسيحي . فكأنه كان لا يزال يتذكر في كل كلمة يقولها كلمته في نشيد « المجد لله في العلا وعلى الارض السلام » الذي تلاه في الذبيحة الالهية اثناء القداس وهي تلك الآية الالهية: «اقم يارب حافظاً لفمي وحارساً لشفتاي» ولقد استجابه الله فما نطق فمه بكلمة يؤآخذ عليها امام الله او امام الناس !

كان يتناول طعام الظهر مع حاشيته البطريركية وزائريه أيّاً كانوا فيلازم الصمت ويأكل جيداً . وبعد الاكل يزور القربان الاقدس مع جميع جلسائه على المائدة ، ثم ينصرف معهم نصف ساعة في مجلسه ، وهو على « طراحته » التاريخية يحادث الكبير والصغير من ابناء طائفته ومن سائر ابناء الاديان والطوائف بلهجة واحدة هي السذاجة المقرونة بالوقار . ثم يختلي في غرفته فيرتاح قليلاً وينهض مجدداً الى تلاوة صلاة المساء الفرضية ثم يقرأ في الكتب الروحية فلا يفتح بابه الّا عند الساعة الرابعة فينصرف من ثمّ الى اشغال البطريركية الى ما بعد مغيب الشمس نحو الساعة السابعة فيغادر الجناح البطريركي ، ويقرع الارض بعصاه تلك القرعات التقليدية التي كان موصوفاً بها ، فلن تبلغ آذان من في الدار البطريركي حتى يترك كل واحد عمله وينهض مبادراً الى الكنيسة قائلاً لمن كان يجهل مغزى تلك النغمة : ان السيد البطريرك يدعو بعصاه الى الصلاة العمومية . وهذه علامة منه في كل عمل من الاعمال المشتركة في البطريركية .

كان يترأس بذاته الصلوات اليومية الجمهورية في الكنيسة ، ولا يترك

واحدة منها يوماً فيوماً . وبعد الصلاة والعشاء يصرف وقتاً مع حاشيته وزائريه في القاعة الصغيرة . وفي ساعة معيّنة اي نحو الساعة الثامنة والنصف ينصرف الى حجرته ويقفل مخدعه ويعود الى الصلاة والابتهال الى ساعة متأخرة من الليل .

ومما يلفت النظر ان البطريرك الحويك كان يعترف كل اسبوع مرة متخذاً له مرشداً دائماً احد الكهنة امناء اسراره يجثو بين يديه معترفاً بهفواته ، نادماً عليها ، عاملاً بارشاد مرشده

ولسائل ان يسأل بماذا كان يعترف البطريرك القديس وما كانت خطاياه ؟ هذا لا يعرفه الا الله . ولكننا نعلم ان القديسين ساروا على هذه الخطة الحميدة ليس لانهم كانوا خطأة ، بل لانهم كانوا يعترفون بأصغر الهفوات وبكل ما كانوا يعتبرونه تقصيراً في واجباتهم . ومن هذا النوع كان اعتراف البطريرك الحويك . فانه كان ينظر الى واجباته في مركزه الخطير ، مدققاً في اعماله اليومية كلها ، مراجعاً اياها عملاً فعملاً ، وازناً كل عمل بميزان الحق والعدل ، محاسباً نفسه قبل ان يحاسبه ربه على اعماله ، حتى اذا شام تقصيراً في امر بادر الى التوبة والاعتراف والقصد الصالح بعدم العودة وبالتدقيق في واجباته . تلك امثولة شريفة لكل رئيس روحي وزمني .

ومن دلائل حبه ليسوع الاله المحتجب في القربان المقدس انه ما كان يترك زيارة القربان يوماً واحداً بل كان ينفرد عند الاصيل باله المحبة ، صارفاً امامه في الهيكل الوقت الطويل في مناجاة قدسية يستمد منه العون والايد في مهام بطريركيته .

***

هذا كان شأن البطريرك اللبناني من واجباته الشخصية نحو ربه يتممها كل يوم بترتيب عجيب . ولو اننا حسبنا ايام بطريركيته كلها لما رأيناها تختلف عن بعضها بشيء ، بل لتمثّلناها يوماً واحداً فلا السياسة العظيمة ولا البلايا ولا الشدائد ولا المهرجانات ولا زيارات كبار الدين والدنيا ولا المشاكل الدينية او المدنية بدّلت من حياته او عدّلت من مسلكه وخطته مع ربه . ومع قيامه

الدقيق بجميع فروضه الدينية كأنه ناسك من النسّاك المترهبين في المحابس
اكليريكي في المدرسة الاكليريكية ، ما قصّر قط بواجباته نحو البطريركية
بل كان يتمّم كل شيء بدقة ونظام ووضوح ويطّلع بذاته على كل شيء
الشؤون الروحية والزمنية بهدوء ورحابة صدر.

وكان شغفاً بمطالعة اعترافات القديس اغوسطينوس ، وكتاب الاقتداء بالمسيح . ولشديد اتكاله على الله وعلى عنايته الالهية ، ما ظهر عليه قطّ القلق في حياته على شيء ايّاً كان ، ولا ارتبك في تزول المصائب ، بل كان الارتياح بادياً على اساريره والطمأنينة ظاهرة في عينيه شأنه في ذلك شأن الطفل على ذراع والديه لا يفكر في شيء ولا يخاف على نفسه من شيء لانه في آمن موضع

فلكل كاهن ، ولكل رئيس روحي ، امثولة قاسية في حياة البطريرك العظيم . فان اقل المشاغل تشغلنا عن فروضنا الدينية وواجباتنا اليومية فنقلق ونضطرب ونقصر في واجباتنا ؛ ونلتمس الاذن للتخلص منها كأنها عبء ثقيل علينا . وتارة نؤجل ، وحيناً نهمل ! فمن منّا عليه من المهام ما كان على ذلك البطريرك ؟ ومع هذا فان النسّاك في البرية ما كانوا اكثر منه تدقيقاً في المحافظة على الفروض الروحية اليومية !

ان هذا هو النزر القليل الذي توصّل اليه اختبارنا من معرفة حياة البطريرك الروحية الفردية ، ولا سبيل الى معرفة اكثر من ذلك بما انه كان عاملاً بقول الانجيل :

« امّا انت فاذا صلّيت فادخل مخدعك واغلق بابك وصلّ الى ابيك في الخفية وابوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك »[1]

اما الذي استقيناه من حياة البطريرك الفردية فقد اختلسناه خلسة من مراقبته او من مراقبة الذين لازموه في جميع حياته البطريركية او في الشطر الاكبر منها.

غير اننا سنقف على حياته الفردية من درس حياته العمومية تجاه ربه . لا

---

(١) متى ٦:٦

الاعمال العمومية التي كان يعملها تجاه طائفته وبلاده كانت تظهر ما انطوى عليه قلبه من حبّ الله وحب القريب ، وفيه قد صدق المثل القائل : « ان الاناء ينضح بما فيه » بل صحّت فيه آية الانجيل : « من ثمارهم تعرفونهم »[1] و« كل شجرة صالحة تثمر ثمرًا جيدًا »[2] وما كان احد اعزّ لديه واقرب اليه من الاتقياء. فكان يهشّ لهم ويحبهم ويستأنس بهم ويتحدّث عنهم ويشق بهم وينقاد الى آرائهم ويعتمد عليهم اكثر من اعتماده على ذاته . ولكنه كان يقطّب حاجبيه ، وتبدو عليه ملامح الكآبة والغم عندما يعرف بسوء سيرة احدهم.

اني قد طالعت اكثر من مائتي سيرة من سير الصالحين فلم أرَ في حياتهم الفردية ما يزيد على حياة البطريرك الحويك في حياته الروحية الفردية نحو ربه بل يفضل بعضهم بانه لم يكن موسوساً في حياته ولا تبدو فضيلته بمظهر صعب يستحيل على الناس الاقتداء بها . فكان يأكل جيدًا ، دون ان يشرب قط مسكرًا ، وكان ينام جيدًا ، ويعمل كل شيء جيدًا ، بترتيب وسذاجة متّبعاً في حياته كلام الرسول القائل :

« واذا اكلتم او شربتم او عملتم شيئاً فاعملوا كل شيء لتمجيد الله »[3]

فكان يمجد الله في جميع اعماله وكانت فضيلته محبوبة جذّابة يراه الماروني ويراه المسيحي ويراه المسلم والدرزي والشيعي ، الرفيع والوضيع ، الحاكم والمحكوم ، فينحني كلٌ منهم بملئ راحته ويقف مكتوف اليدين امامه مأخوذًا بجلاله ووقاره وسذاجته المهابة مقتنعاً في نفسه انه امام « رجل الله ».

---

١) متى ٧ : ١٦ ٢) متى ٧ : ١٧

٣) الاولى الى كورنتس ١٠ : ٣١